أسرار في السودان: أسئلة تحيرني حول إنسان السودان

د. أمجد محمد إدريس

الأسئلة المحيرة

من هو إنسان السودان؟

30 مليون شخص كيف نراهم ؟ اين يوجدون؟

أنا سوداني .... إذا من أكون؟ (الهوية والمراهنة علي الهوية)

هل أنا من أصل عربي أم أفريقي أم شئ اخر؟ وحتفرق شنو؟

إختلاط الأنساب، لأي درجة؟

قيمة الإنسان السوداني لدى السوداني الاخر، ما هي؟ في الثقافة – العلم – روح الجماعة

السودان: الشعب – السلطة – الوطن، يختلطون دائماً ويحكم علي الإنسان بأن يكون هو الجميع

"من الطبيعي، من الجيد ومن المهم أن نكون مختلفين ومتنوعين، لكن ما ليس طبيعياً ولا جيداً أن لا ندري كيف نُدير ونستفيد من هذا التنوع"

لا أود أن أقدم إجابات محددة علي هذه الإسئلة فيما سأقدمه من طرح هنا، ولكني أود أن أصب بعض الزيت علي النار لعنا نبدأ بالتفكير بجدية حول إنسان السودان، لعلنا نتوقف مع أنفسنا قليلاً كي نرى بعض الملامح في شخصيتنا من الداخل ونتبين.... لماذا الحال هو الحال، بالطبع هذا ضمن جوانب أخرى كثيرة لم نذكرها هنا.

حينما يقولون السودان ويتحدثون عن تاريخ السودان، أجدني أفكر حينها في نقطتين أساسيتين.

- أولاً هل يا ترى ظل إنسان السودان هو ذاته نفس الانسان الذي تحدثت عنه كتب التاريخ في قديم الزمن، أم أن الحال "زمان" إختلف عن ما هو عليه الحال "الان"؟.
- ثانياً أجدني أفكر أيضاً ..... حين يقولون السودان هل يقصدون السودان الشعب أم السودان السلطة أم يعنون السودان الإنسان الذي يحكم عليه بأن يكون هو الجميع.

إنسان الأمس واليوم

ولعل السؤال الأول والمهم هنا .... هل ظل الإنسان هو ذات الإنسان؟ عزيزي القارئ قد تكون مثلي ممن قرأ العديد من كتب التاريخ وكتب الإجتماع التي تناولت الهوية السودانية وحللت من هو السوداني، لكني قد وجدت أكثرها تحدث عن الهوية المتعددة وعن التمازج بين عوامل تركيبة الشخصية السودانية وكيف أنها أفرزت ما هو عليه السوداني اليوم. وهو ما قد يكون صحيحاً، لكن ما هو غير واضح هو كيف إستفدنا كسودانيين من هذا الأمر. من الجوانب المهمة في الشخصية السودانية والمجتمع السوداني بشكل عام هو عدم القدرة علي التغيير أو صعوبة تحقيقه، وبصورة خاصة تغيير طريقة التفكير أو منهجية التفكير. وقد قام البروفيسير محمد إبراهيم أبو سليم في كتابه في الشخصية السودانية، بطرح عدد من الأمثلة علي إزدواجية المظاهر في الشارع أو المجتمع مثل وجود وإستعمال الساقية جنباً إلي جنب مع الطلمبة الزراعية، وإلي تفاوت أشكال البيوت في الشارع السوداني بين الحديث والتقليدي، وكذلك قارن بين خريجي المدرسة والجامعة الذين عاشوا جنباً إلي جنب مع خريج الخلوة، وغير ذلك من الأمثلة. كما أشار إلي جانب مهم جداً وهو قدرة البيئات السودانية المختلقة علي الإحتفاظ بذاتيتها بشكل كبير رغم المتغيرات. وقدم تحليلاً واقعياً للتحدي الماثل في التوفيق بين الثقافات لتتخذ خطا منسجماً مع شخصيتها وعلي أساس توفيقي. وأثار الكاتب أيضاً تحدي اخر تمثل في كيفية التصدي لمشكلات التحديث بإعتبارها عملية حضارية ضرورية لتقدم الانسان. ونضيف لما طرحه البروفيسير أبو سليم أن هذه الملحوظة هي بالتأكيد من العوامل التي أثرت علي تشكل إنسان السودان علي مر الأجيال.

هذا الأمر يدعونا للتساؤل:

"هل ظل إنسان السودان موجود في التفاصيل منذ القدم بالرغم من المتغيرات من حوله؟"

هذا بلا شك سؤال مهم وكبير في ذات الوقت. حيث أننا سنجد أن هناك تلامساً وتشابه كبيرين بين إنسان الماضي وإنسان الحاضر، وهذا واضح في الكثير من العادات والتفاصيل من حولنا.

أعلم - كما غيري من السودانين - الكثير عن تاريخ السودان حيث ما كان من الحضارات القديمة مثل حضارات ما قبل التاريخ ثم حضارات كرمة، كوش، مروي والنوبة مروراً بفترة دخول الإسلام السودان ثم بعد ذلك قيام دولة الفونج وسنار، وما تلى ذلك من الغزو والحكم التركي المصري للسودان ثم إنتصار الثورة المهدية، والفترة التي قام فيها التاج البريطاني بالسيطرة علي السودان وما تلاه من ثورات وأحداث أدت إلي الإستقلال ثم ما تعاقب علي السودان من أنظمة وحكومات حتى وصلنا إلي يومنا هذا.

أجدني أسال نفسي ..... هل السوداني الذي عاش علي مر هذا التاريخ في دنقلا ومروي، بربر وشندي، مدني وسنار، الجزيرة أبا والأبيض، نيالا والفاشر – هو ذات الإنسان الذي يعيش الان في هذه المدن وغيرها، من حيث نظرته لنفسه كإنسان ونظرته لإنتمائه للسودان ونظرته للسوداني الاخر؟ ولعل الكثير من الكتب تناولت هذا الجانب، منها ما تناول التاريخ مرتبطاً بالتغييرات التي حدثت في التركيبة السكانية للبلاد عبر مر التاريخ، ومنها كذلك ما تناول التغييرات في تركيبة السكان وما صاحب ذلك من تغيير في الثقافة والمفاهيم وغيرها من أشكال التعبير في المجتمع. وبدون الدخول في التفاصيل، سنجد أن الكل مجمع علي أن الحال "زمان" ليس هو بذات الحال اليوم. ولعل هذا نجده خلاصة ما يقول به الكثير من أباء جيل اليوم حين يعلقون علي ما دأب عليه الكثير ممن عاصر فترات تاريخية سابقة قد لا تتجاوز خمسة عقود مضت ويبدأ الحديث عن "زمان كان أحسن ما زي الزمن دا". ويبدأ الحديث عن المقارنة وتنتهي خلاصة الحوار إلي أن "كل زمن بزمنو". لكن يظل السؤال قائماً حول أن تغير الزمان والحال بالضرورة إستلزم تغير الإنسان وعقليته وطريقة تفكيره، وهو الأمر الذي أغفلته الكثير من الدراسات والتحليلات التي تطرقت إلي هذا الجانب.

أجدني أتناول هذا الجانب ذلك أن "تعريف" إنسان السودان علي أنه (قالب في حالة مستمرة من التغيير الذي لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال حاضر اليوم هو إمتداد "غير متغير" لتاريخ الأمس)، وهذا علي الأقل من الناحية النظرية، أما من حيث الواقع فأجد نفسي تارةً أتفق مع هذا التعريف ولكن تستوقفني في ذات الوقت حال السودانيين اليوم وما صار إليه. فإرتباطاً بهذا الأمر أجدني في حيرة من أمري حين نقول أن القبيلة الفلانية أصلها نوبي وبالتالي نجدهم اليوم يتبنون هذه الفكرة تماماً مثل قبائل الحلفاويين، الدناقلة والمحس في شمال السودان. والحيرة تأتي إلي السطح حيث أن الإختلاط في الأنساب والعادات وحتى اللغة وكذلك حركة السكان المتعددة وغيرها من العوامل تجعل من الصعب أن نحكم علي المنطقة التي عاش فيها الإنسان في فترة ما من التاريخ الماضي علي أساس أنها حملت

ذات إنسان اليوم بكل مقومات تعريفه التاريخية من حيث إنتمائه العرقي والثقافي. ما أود أن أقوله هنا..... سنجد أن الكثير من السودانيين اليوم يعيشون في الماضي ويودون مواصلة مسيرة درب "أجدادهم" – وهذا شئ طبيعي بكل تاكيد. ومما قد نضربه من أمثلة علي ذلك حين نجد أنه وحتى الان أن النقش علي البيوت في شمال السودان بإستخدام الألوان الزاهية الجميلة علي البيوت وبإستخدام أشكال تشبه تلك النقوش الفرعونية القديمة هو سمة مميزة للكثير من القرى في تلك المنطقة. مازال الإنسان في عمق المدنية في الدمازين يستخدم ذات تركيبة بيت القش "القطية" داخل المنزل وإن كان ذلك في ركن ركين في المنزل في بعض الاحيان، مازال البعض يصر علي ختان الإناث علي الطريقة الفرعونية في الكثير من المناطق ومازال.... ومازال..... ومازال.

ربما قد أتفق هنا أن المحافظة علي الموروث أمر جميل وجيد ومهم، لكن وكما سنتحدث عن ذلك لاحقاً، سنجد أن هذا الأمر إنعكس بالتأكيد علي قدرة الانسان السوداني من حيث العقلية علي مجاراة متطلبات الحياة، والتي تتطلب منا الإندماج مع بعضنا البعض كمجتمع واحد يتغلب علي التفاصيل المرتبطة بالعادات والنمط السلوكي في الحياة اليومية. ومثال بسيط اخر قد نقدمه هنا أن بعض كتب التاريخ والأنثروبولوجيا أشارت إلي عدم تغيير تركيبة البيت السوداني "المنزل" في شكله العام وفي مختلف مناطق السودان منذ ما يربو عن 300 عام، حيث إحتفظ المنزل بشكله الذي يمتد أفقياً وليس رأسياً. وما زال مصطلح العمارات يطلق علي المنازل التي لا تتبع التصميم المعتاد للبيوت السودانية التقليدية والتي تقوم علي السكن المصمم بنائه من عدة طوابق تعلو عن الطابق الأرضي، ولم يستطع الكثير من السودانيين حتى الان تبني فكرة البيت الرأسي أو السكن في شقة. ما زلت أذكر حوار لي مع والدي رحمة الله عليه حول لماذا يصر علي شراء بيت أرضي مع أننا بالإمكان أن نستبدل ذلك بشقة، كانت هناك الكثير من العلل والأسباب وراء رفضه للفكرة لكن من أهم الأسباب طبعاً كانت فكرة أن الأرض التي بنيت عليها "العمارة" لن تكون ملك لنا وبالتالي "الفايدة شنو أننا نشتري شقة"، كذلك كان الفهم أنو البيت "المهوي" أي ذوو التهوية الجيدة والرحب المساحة هو أفضل بكثير من الشقة "الكاتمة" أي الضيقة ومعدوة التهوية مقارنة مع البيت الواسع. عدم التغيير في عقلية الكثير من السودانيين في هذا الجانب منذ أمد بعيد لم يتمشاى مع التغيير المهول في عدد السكان الذي تشير

الإحصائيات إلي زيادة مضطردة فيه بنسبة 2 إلي 4 في المائة في كل عام عن الذي سبقه. هذا الأمر هو ما جعل من الخرطوم وبعض المدن الاخرى في السودان، ضمن أسباب اخرى، هي الأعلى مستوى في أسعار الأراضي والمنازل مقارنةً مع الدول المحيطة بنا وتلك الشبيهة لنا من حيث المساحة، عدد السكان وشكل الإقتصاد. وهذا الأمر هو لضرب المثل فقط وسنجد غير ذلك من الأمثلة. لماذا يحدث هذا الأمر؟ لماذا لم نستطع حتى الأن أن ننجح في تغيير المفهوم الثقافي لدينا بكيفية التعامل مع الواقع الجديد؟ أنا هنا لا أتحدث عن بناء العمارة علي أنه شئ إيجابي أو شئ مهم .... ولكن نتحدث عن طريقة ومنهجية تفكير ما تزال تطوق أعناقنا كسودانيين لدهور خلت كما يبدو. وأخذنا هذا الأمر كمثال فقط ويوجد غيره العديد والعديد من الأمثلة الاخرى. وأجد نفسي أطرح سؤال كبير هنا: هل السوداني يحب أن يعيش في الماضي ولا يستطيع أن يجد له منه سبيلاً؟ هل هذا أحد أسباب ثباتنا أو عدم تقدم حضارتنا كشعب بصورة عامة؟ هل التفكير الفردي للإنسان يضر بنا كشعب؟ أم هذه ميزة؟

"التحدث عن التاريخ مهم لكن ما يهم هو الواقع الان، فحتى التاريخ كان هو نتاج تاريخ قبله من التغييرات السكانية"

يبدو أن السودانيين لديهم صعوبة في تبني الجديد وبالتالي تبني الفكرة الجديدة أو تغيير المنظور الذي يتبني به الشخص أي تجربة أو فكرة جديدة. والسؤال هو لماذا هذا الوضع هل هو التعليم أم التنشئة أم ماذا؟ وبالتالي لماذا نجد أن الانسان السوداني لم يستطع مجاراة التغييرات الكبيرة التي حدثت حول العالم؟ والمهم هنا أن السودان ليس استثناء لكن من اوضح الدول في ذلك.

بالفعل .... لقد إختلاط الحابل بالنابل في السودان

لن أقدم طرحاً جديداً إذا قلت أن إنسان السودان اليوم هو نتاج لتداخل الكثير من العرقيات والأجناس في هذه البقعة من أرض الله الواسعة. وقد وردت الكثير من الأدلة حول هذا الأمر. فقد قدم الأستاذ يوسف الشريف في كتابه "السودان وأهل السودان: أسرار السياسة وخفايا المجتمع" العديد من الحقائق المثيرة حول أهل السودان، وبين أنه ومنذ إستقلال السودان والبلاد قد فُتحت أبوابها جميعاً لهجرة أعداد مهولة من قبيلة الفلاتة إلي السودان ونحن نتحدث عن رقم تقديري يربو عن سبعة ملايين نسمة. لا شك أن ذلك قد ساهم إلي حد بعيد في تغيير التركيبة السكانية في السودان اليوم. تسائل الكاتب حول ما إذا كان الأمر هو شئ مخطط له أو محض صدفة أن تكون هذه الهجرة هي محاولة لطمس الهوية العربية في السودان وتغيير التركيبة السكانية بشكل يضمن في المستقبل هيمنة القوام الافريقى علي النسيج السوداني، وهذا ليس بمقام الإجابة عن السؤال، لكنه سؤال مثير للإهتمام. سنجد كذلك أن

التاريخ يشير إلي هجرات متعددة وبأعداد تتفاوت في كل حقبة من حقب التاريخ من الجزيرة العربية إلي السودان، حيث وثق العديد من المؤرخين هذا الهجرات والتي أصحبت هي بداية نشأة العديد من القبائل السودانية التي تعتبر أصولها عربية. كذلك شهدت البلاد هجرات عدة من مناطق أخرى من قارة أفريقيا إلي السودان سواءً أن كان من إتجاه الجنوب أو من ناحية الشرق.

علينا تقبل هذه الهجرات كلها علي أنها أمر طبيعي وأن ديناميكية الحياة تتطلب هذا الأمر. الهجرة من الحبشة إلي السودان، ومن السودان إلي أوروبا.... سيكون الدافع غالباً هو البحث عن الأمن والرزق وإن تعددت الأسباب الجانبية. هذا الواقع كان ومازال وسيظل عليه الحال إلي أن يشاء الله. إذا نظرنا إلي جغرافيا الحزام العرضي لقارة أفريقيا الذي يقع فيه السودان سنجد أن هناك مدخلين من قبل جنوب ووسط قارة أفريقيا - التي تعج بمن يتوقون لأراضي مثل تلك التي في السودان، أو يخططون للهجرة نحو الشمال عبر السودان - إلي شمال أفريقيا حيث المنفذ إلي أوروبا "أرض الأحلام الجديدة". أحد المدخلين هو حزام النيجر إلي ليبيا أو الجزائر والاخر هو السودان إلي مصر أو ليبيا. هذا الواقع الذي فرضه موقع السودان لن يتغير مهما وضعت له من قوانين ونظم للحد منه. إضافة إلي ذلك سنجد أن الحروب التي حدثت في المناطق جنوب السودان، خاصة أفريقيا الوسطى والكنقو الديموقراطية، أسهمت كذلك في وفود عدد كبير من اللاجئين من ويلات هذه الحروب. أجدني أذكر أنني قد إلتقيت بشخص وصف نفسه في البدء بأنه من أبناء أمدرمان الأصيلين وذلك مع بدايات لقائي به، ثم بعد أن تعمقت معرفتي به إذا هو يبوح إلي بسره حيث أنه ليس سودانياً البتة وإنما أصوله من الكنقو أماً وأبً، إذا وجدته أمامك في أي مكان في العالم تجدك تقسم أنه سوداني شكلاً ولغة وسلوكاً، وهو يحمل الجنسية السودانية ولا يدري شيئاً، ولا يريد أن يدري شيئاً عن الكنقو "وهذا من حقه كأنسان".

ناتج هذا التخالط أن العديد من الدراسات أشارت إلي أنه يوجد ما لا يقل عن 19 مجموعة عرقية رئيسية و597 فرعية في السودان (قبل إنفصال جنوب السودان). حوالي 40% من السكان عرب، دينكا حوالي 12%، بجا حوالي 7%، غير العرب في غرب السودان حوالي 6% والعديد من العرقيات الاخرى. هذه التقسيمات هي بالطبع ممثلة للاتجهات الشعبية في نظرة الأفراد بعضهم إلي بعض وعلاقاتهم التاريخية واين يقطنون في السودان. وتشير دراسة جينية حديثة إلي أن العرب في السودان تعدادهم يقارب 17 مليون نسمة (ومصطلح العرب هنا غير واضح في هذه الدراسة حيث تشير إلي جين محدد قد يوجد في العربي الأصيل "الحر ما يقال عند البعض" أو العربي الهجين الذي أحد أبويه من أصول عربية.

لن يتاح المجال الكافي لي هنا كي أسرد لكم كل ما خطته كتب التاريخ أو الإحصاءات حول هذا الأمر والعديد من البحوث التاريخية والإجتماعية بل حتى في المجالات السياسية حيث لم تنفصل قضية الهوية قط عن سباق السياسة حيث ظلت ملعباً خصباً لتقمص الشخصيات كيفما إستدعت الحاجة، فمرة الهوية هي الطريق إلي الوحدة وتارة أخرى الهوية هي الأساس الذي ينطلق منه الإنفصاليون أو

غيرهم ممن "يخيط الجلابية حسب الطلب بالمتارة"، والكيانات السياسية المختلفة تستخدم هذا الوتر كيفما أتفق الحال وكيفما اراد الغناي.

والان عودة للسؤال الثاني الكبير والمهم الذي قمنا بطرحه، هل من فرق واضح بين أن تكون أصولي عربية أو زنجية أو غير ذلك؟

أجد نفسي غير قادرٍ لا أخلاقياً ولا دينياً ولا من أي مبدأ أن أجد فرقاً في ذلك، وأظن الكثير من أبناء هذا الوطن مثلي في هذا الحال. طفت العديد من دول العالم وكلما أسئل عن جنسيتي وأخبر سائلي بأني سوداني الأصل لم أجد من يسألني أبداً عقب ذلك عن كون أنني عربي أم زنجي الأصول. بل حدث لي موقف إستفهامي لأكثر من مرة كيف أكون من السودان وأتحدث العربية؟ في الواقع أن السائلين بهذا يبوحون بجهلهم بالجغرافيا والثقافة العامة لكن في ذات الوقت يعطيني دائماً الإنطباع أن ما نروج له داخلياً حول قوة هذا التمازج بين الأصول العربية الأفريقية داخلياً ونطمح أن يكون سمة لنا .... هو في الواقع أمر ليس ذي بال عند الاخرين "بالمرة". ولكن ذلك أيضاً ليس بالمهم فهذا العنصر الذي نراهن عليه لا أجد مبرراً واضحاً له من حيث الأساس. ولكن ما يحير أيضاً أن تجد هذا الأمر هو دائماً أحد الموضوعات المتكررة في وسائل الإعلام بغير هداية علي أنه محور مهم في شخصية إنسان السودان، وبالتالي نجد أننا نسوق لهذا الأمر علي أنه (*بعداً إجتماعياً يحفز علي إنتمائنا للشخصية السودانية المركبة والثرية في عاداتها وموروثاتها والذي أسهم في جمع شمل هذا المجتمع السوداني*)، هذا ما قالته بالنص إحدى المذيعات في قناة تلفزيونية سودانية معروفة، في تلك اللحظة لو أن البرنامج المذاع كان مباشراً لكنت إتصلت ورددت علي هذه المذيعة سائلاً أيها عن أين تعيش وهل تتحدث عن مجتمع السودان أم عن المجتمع السويسري؟

"عدم القدرة علي التمازج بسهولة بين مكونات المجتمع هو قضية قائمة وموجودة لابد أن نعترف بها"

أجدني أصر علي أن المراهنة علي أن الهوية المتمازجة هي مصدر قوة في المجتمع السوداني والشخصية السودانية وأنها شئ إيجابي بالمعنى المطلق للإيجابية ... هو مجرد وهم وبعد عن الواقع... بمعنى أخص من يؤمنون بأن الهوية المتمازجة هي الحل في حد ذاتها لعدد من مشاكل السودان. هذا الإتجاه أثبت فشله تماماً في الفترة الماضية نحن أمام حقيقة قائمة أمامنا الأن لمن يرى ببصيرته، الصراعات نتاج طبيعي لعدم التمازج .... وهي نتاج طبيعي للإختلاف غير المنظم.... هي نتاج طبيعي لتركنا الحبل علي القارب أملين في أن تجري الرياح بما يشتهي راكبو السفينة ... وهي نتاج لعدم معرفتنا لذاتنا ومواطن ضعفنا وكيفية تطوير الذات الكلية للسودانيين .... الأمر الذي لن يحدث قريباً أبدا.

"نحن لا ننكر أن التنوع ظل سمة جيدة ننادي بأنها شئ جيد نفخر به، لكن سوء إدارة هذا التنوع هو أحد أكبر الأسباب التي أدت بنا كسودانيين حتى الان إلي عدم أو صعوبة تقبل الاخر علي المستوى الإنساني"

هذا الأمر مرتبط أيضاً بعدم القدرة علي الخروج من الارث الثقافي الذي وجدنا عليه من سبقونا تاريخاً، وإصرارنا علي التمسك بكل شئ حتى المفاهيم الأساسية التي تبنى عليها/او تقوم عليها مبادئ الهوية والإنتماء التي نحتاجها في الوقت الراهن. هذا الوضع والمتمثل في عدم بناء صورة إيجابية لنا كأبناء في الوطن الواحد - "مختلفين" لكن في ذات الوقت نقدر هذا الإختلاف ولا نرفضه، هذه الوضع هو الذي حدا بكثير من أبناء السودان إلي تبني نظرة سالبة حول أنفسهم، من هم، ما هو تاريخهم، كيف ينظرون إلي السوداني الاخر.

كمثال لهذا وكتعبير للوضع أجدني أستدرك الجانب التالي. حيث أنه ومن أكثر الأسئلة بديهية في حوارنا مع الاخرين في السودان، هو ما يحدث عادةً عند بداية التعارف بين شخصين أيان كانوا رجالاً أم نساء، أميين أم في قمة العلم والثقافة، فالسؤال يفرض نفسه بحكم التركيبة العقلية للسائل والمجيب: "أنتا/إنتي أصلاً من وين؟". في العادة، وهذا ما تعلمته عن أساسيات التواصل الفعال ومن تجربتي أيضاً، أن مثل هذا السؤال يعتبر أحد المفاتيح التي يسهل عليك بها إيجاد مدخل للتواصل مع الشخص الاخر، ومن خلال معرفتك أو عدمها لمكان إنتمائه وهذا يمكنك بالتالي من إيجاد مدخل للحوار. لكن في السودان دائماً أجدني أشك في النية من خلف السؤال، حيث أجدني أظن أن أكثرية من يسئلون غالباً ما يريدون أن يكونوا راياً سريعاً حول من هو أمامهم بناءً علي مسقط راسه الذي يرتبط في الغالب الأعم مع إنتمائه العرقي أو القبلي، وبالتالي ستجد أن الشخص السائل رسم لك الصورة قبل أن يعرفك. وبناءً علي الرد سيتم تصنيفك مسبقاً دون معرفة أي تفاصيل اخرى عنك، فقط من خلال هذا الإنتماء القبلي.

وأود أن أعتزر مسبقاً هنا عما سأورده في هذا الجزء لما قد ستجده عزيزي القارئ كشئ "غير لائق"، لكن هذا نتاج سنوات من سمعي لما يدور في المجتمع من حولي في هذا الأمر. فبعد أجاباتك عن السؤال يمكن تصنيفك علي أساس أن الفلاتي بتاع سحر، ود النوبة خاين، الشايقي خسيس، الجنوبي عب "عبد"، ود الجزيرة من أهل العوض وما أدراك من هم أهل العوض، وغير ذلك من المترادفات التي أصبحت تمثل التعبير عن التنوع المرفوض جملةً وتفصيلاً بين القبائل المختلفة. وللأسف أصبحت المجموعة السكانية لا تُحمل إلا علي الصفات السيئة سواء أن حقت أو بطلت هذه الصفات في الشخصية المعينة، ومما مررت به في هذا الإطار أن الكثير جداً من أصدقائي ... أو من يصبحون أصدقائي لاحقاً، حين يعرفون أنني "شايقي الأصول" يكررون "والله مع أنك ما بتشبه الشوايقة" وقد أحصيت هذه المقولة وقد قيلت لي وعزة الله أكثر من 30 مرة وتوقفت عن العد بعد ذلك.

"الإختلاف في السودان ما زال لا يعبر عنه بصور إيجابية"

كيف نريد كسودانيين أن نعيش في تمازج ونحن تفكيرنا بهذه الشكل؟ هذا الواقع أصبح يحدو بكل شخص أن ينتمي لثقافة وهوية قبيلته أو عرقه أكثر من انتمائه لهوية الوطن وأين هو الوطن. هذا الوضع من أهم الأسباب التي جعلت السودان يعيش حالة من الصراع الدائم المستمر منذ منتصف القرن الماضي وحتى تاريخ هذه السطور ولن يتوقف، سواء أن كان ذلك صراع سلاح أو حتى صراع فكر وسياسة ... والسياسة "خشم بيوت"، أو حتى في أبسط صور الصراع المتمثلة في رفض الاخر والتعصب العرقي. قيم العدالة والحرية والمساوة، والتي نادت بها كل الأطراف المعادية للحكومة المركزية أيان كان توجهها، في السودان منذ الإستقلال، هي قيم مفقودة حقيقةً في شكل العلاقة مع المناطق محل النزاع، لكن هذه المناطق في أغلبها الأعم ما حركها في الحقيقة هو ما في داخل النفوس من قيم سلبية اخرى تعلو علي هذ القيم المجتمعية الإيجابية (مثل العدالة والحرية كنا ذكرنا). سنجد أن قيم مثل الثأر، الأنفة القبلية أو العقدية، إنعدام الثقة وغيرها، كانت هي حقيقة حطب نار الصراع، هي التي تجعل الشيطان يخول للجميع أنهم علي الحق والاخرون علي الباطل. قضايا مثل العدالة، الحرية، المساوة في الحقوق والواجبات وغيرها، لا تحتاج إلي سلاح لإقتلاعها بل إلي حوار وتفاهم. ما يحتاج إلي سلاح أو عكاز هو مبدأ "انتا قايل نفسك أرجل مني ولا أحسن مني ولا شنو؟" وهنا يقع الذي نخاف من وقوعه ويجد الخبيث "إبليس" مدخله فيفرق بين الأخ وأخيه ليس في شي إلا أن عميان البصيرة يؤدي بالضرورة إلي فقدان العقل تحت وطئة الغضب والتعصب الأعمى.

لماذا لا نستطيع أن نرى بعيون السوداني البسيط الموجود في السوق الشعبي أمدرمان أو الذي يسكن في أم بادر أو غيرهما. 33 مليون سوداني ينتشرون في هذا الوطن، ناهيك عمن هاجروا إلي أرض الله الواسعة خارج السودان، يحتاجون أن نراهم في الصورة الأكبر وليس عبر عدسة عيون النمل "عدسة سداسية". لماذا لا نأخذ هذا الأمر علي نحو الجد؟ بناء الأمة يحتاج إلي أمة وليس إلي أشلاء أمة. عبارات الدستور والخطط الإستراتجية في هذا الجانب هي روئ وتوجهات جميلة للغاية، وعزة الله إذا تحققت ستكون هذه البلاد في خير كثير. لكن للأسف "الما عندو سيد ... ضايع". قضايا مثل الصحة والتعليم، حقوق الطفل والمرأة وجدت حظها من المتابعة ولو بصورة خجولة حتى الأن، لكن علي الأقل "وجدت وجيع" يقوم علي أمرها ويوليها الإهتمام. لكن قضية الهوية وبناء هوية الأمة ... ضاعت في الهواء هباءً منثوراً. قيادة هذه الأمة في حوجة للتوقف قليلاً والتفكير بروية حول كيفية بناء هوية الأمة وتفويض هذه المهمة إلي جهة محددة لتكون مسئولة عنها.

لماذا كلما نهزم الطائفية والقبلية المتعمقة في شخصية السودان تعود من جديد؟ وكيف المخرج؟

لماذا لا نعود للتاريخ ونتعلم مثلاً مما مثله مؤتمر الخريجين (الذي أسس كنادٍ للخريجين علي أساس ثقافي وطني) لهزم مبدأ الطائفية والتفرق في السودان. قد يكون التوجه الثقافي للنادي هو غطاء سياسي واضح، لكن ما نود أن نقوله هنا أن لإثراء ثقافة تقبل الاخر دور قوي في تجاوز هذه المعضلة وهو ما أنفرد به النادي كأداة هامة إستطاعت تجميع العديد من السودانيين رغم إختلافاتهم في "صحن حوش واحد". لماذا لم نتعلم مما قام به الرئيس النميري من تبني العداء الواضح للطائفية وما مثله ذلك من سياسة أسهمت في تغيير التفكير الكلي للسكان (ربما !!!)، وما قام به قادة ثورة أكتوبر 1964م وما جاءت به ثورة الإنقاذ في بدايتها من مفاهيم حاولت بها أن تدك القبلية والطائفية إلي الأبد؟ الكثير من السياسات سواء المكتوبة أو غير المكتوبة كانت تسهم إلي حد بعيد في إندحار الطائفية والقبلية لأوقات وعودتها لأوقات اخرى. لكن السودان ليس بإستثناء، فكثير من الدول حول العالم عانت ومازالت تعاني من هذه الأمر خاصة في الدول العربية والأفريقية. ولعل فتنة مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان، والتي غيرت ملامح وتاريخ الإسلام والأمة الإسلامية إلي الأبد، وإن تعددت أسبابها إلا أن الجهوية القبلية كانت في قلب الحدث كما يقال – وأحد أهم أسبابه. لكن في الوقت ذاته دولاً مثل جنوب أفريقيا وسويسرا وجدت التوجه المثالي لفك طلامس هذا السر الكبير. هلا تعلمنا....

دعونا نتفق أولاً أن هوية إنسان السودان اليوم قائمة علي "لا شئ" في الوقت الحالي، وأدري انه "كلام من العيار التقيل"، لكن هذه هي الحقيقة. نحتاج لإماطة اللثام كما يقال عن مفهوم بسيط للهوية يتقبله ويفهمه أبناء السودان القائمين اليوم، بغض النظر عن قبائلهم وإنتمائهم وأن نعمل بهدوء ولكن علي بصيرة لبناء هذه الهوية.

أنني هنا لا أدعو إلي شعار اخر جديد .... ينهزم مع الوقت، لكنني أدعو إلي فهم هذا السر الذي ظل أحد أكبر الخناجر المغروسة في قلب هذا البلد والتي تقض مضجعه. نحتاج لمنظرين يدرسون هذا الأمر وإلي باحثين يتقصون حول أسبابه وأشكال التعبير عنه وإلي أكاديميين يقدمون بعض الحلول النظرية وإلي سياسيين يحملون هذه القضية علي عاتق الجد، لكن الأهم أننا نحتاج إلي سودانيين يريدون أن ترك هذه العقبة وراء ظهورنا ونلتفت إلي ما هو مهم في وقتنا الحاضر من تحديات تنمية حقيقية في أجندة الوطن. فبدون هذه الإرادة لن ينجح الأمر .... والإرادة تحتاج لبناء ..... فهي لن تحدث من تلقاء نفسها أو بين عشية وضحاها لاننا نتمنى.

لقد القى الكثيرين باللوم علي سياسات المستعمر البريطاني في خلق هذه الهوية عبر سياسة فرق تسد وذلك لإضعاف الشخصية الوطنية في البلاد لتسهيل عملية إدارة البلاد في فترة الإستعمار ولاحقاً بعد خروج المحتل عقب الإستقلال. أضف إلي ذلك العديد من الأسباب المرتبطة بمدى قدرة الحكومات

المتعاقبة علي نشر ثقافة تقبل الاخر وكيفية الإستفادة من هذا التنوع، وغيرها من الأسباب. لكن الواقع يشير إلي أن العديد من الدول فطنت إلي مدى أهمية وقوة أن يتمتع البلد بمثل هذه الخلفية الثرة من الأعراق والثقافات. فعملت علي أن تتبنى سياسات في إتجاهين، أولاً بناء الروح التكاملية وليس التمازجية التي نادت بها الكثير من حكوماتنا والتي فشلت حتى الان في هذا الامر، والإتجاه الثاني قائم علي إدارة الإختلاف وتوجيهه نحو مخرجات تعزز (1) الأمن الكلي للبلاد (2) تزيد من النزعة الوطنية للسكان (3) وتحقق الكثير من الفوائد الإجتماعية والإقتصادية للبلد. دول مثل الولايات المتحدة والهند نجحت نجاحاً كبيراً في تحويل إختلافات السكان إلي مصدر قوة حقيقية للهوية الكلية للبلد.

"يجب أن نتوقف الان ونخطط لما ستكون عليه هوية السوداني ابن السودان بغض النظر عن من هو وما هي ثقافته"

التعداد السكاني 2008 أشار إلي وجود 31 مليون سوداني، لكنني أشعر، ولا أدري هل أنا وحدي من يحس بذلك أم هناك من يشاركني الراي بأنه وفي أكثر المدن إزدحاماً في السودان مثل الخرطوم والتي تضم سبعة مليون شخص، فإنني لا أشعر بوجود هولاء الناس من حولي. أشعر دائماً أن هولاء الناس هم مجرد أرقام في ورق. لا أدري من أين ياتي هذا الشعور. وبالرغم من أن عملي في مجال الصحة مكنني أن أطوف عدداً كبيراً من مدن وقرى السودان وشاهدت الكثير من المدن والقرى في ربوع الوطن، إلا أنني مازلت أشعر أنني غير قادر علي أن أرى الا القليل والقليل جداً في هذا الوطن، ونحن هنا لا نتحدث عن رؤية العين وإنما عن رؤية الضمير والإحساس ببعضنا. أين هم هؤلاء السودانيين، لماذا لا نشعر بهم ولماذا لا نراهم غير أعداد تكتب وأرقام تقال. لا إقتصاد يرينا أين هم في خارطة الإنتاج وكأنهم لا وجود لهم في بناء هذه الامة.... وأنا علي يقين أنني كذلك بالنسبة لهم. ودعك من هذا، حتى في مجالات الصحة والتعليم وغيرها من الخدمات الاجتماعية الاخرى سنجد أن هذه الأرقام حول السودانيين ظلت ضعيفة للغاية ولم نستطع حتى اليوم أن نصل إلي أغلبهم بهذه الخدمات. سنجد أن الغالبية من السكان غير مرئيي في الرادار الإجتماعي لهذا البلد وكذلك غير مرئيين للكثيرين من السودانيين الاخرين. والمهم في هذا الأمر أن هؤلاء الناس ما دمنا لا نراهم، وأنا هنا اتحدث بلسان حال من هو في قلب تخطيط وتقديم الخدمات الاجتماعية، فما دمنا لا نراهم فهم بالتاكيد خارج نطاق الرؤية الكلية للهوية الكلية للسكان سواء أن كان علي مستوى الأفراد أو الجماعات. لا أود أن أعطي بعداً نظرياً هنا، لكن هذه حقيقة قائمة وفعلية. إذ علي ما يبدو أن الهوية الكلية لإنسان السودان تظهرها فقط الصفات والعادات لمجموعات السكان والتي لم تتعدى حيز الأرقام ولم تترجم إلي كلمة واحدة أو صف واحد للسودانيين. ولنأخذ مثلاً ما يحدث في مجتمع الخرطوم في احتفالات الزواج، حيث ان النمط التقليدي الذي ينظر به لطقوس الزواج يطغى عليه المنظور لما هي عليه عادات الزواج الذي تميزت به بعض القبائل من بعض مناطق السودان علي أن هذا النمط هو ما عليه الزواج السوداني وهذا ما يعكسه المثقفون علي

شاشات التلفاز أو فرق الفنون الشعبية التي تخرج خارج الوطن. كذلك الثقافات، فالرغم من تعددها مع وصول عدد القبائل الي أكثر من 500 قبيلة في هذا البلد المترامي، إلا أن عدداً محدوداً من هذه الثقافات قد وصل إلي الأخرين من أبناء هذا البلد. أتحدى ان يكون ابناء قبائل شرق السودان، الذين يسكنون في قرى شرق السودان يعرفون بالفعل ما هي عادات وثقافات أبناء قبائل غرب السودان، وكيف يعرفونها وقد انعدمت وسائل الإندماج والتواصل بينهم. بل فلنلقي بنظرة علي ما يقدمه التلفزيون القومي في هذا الإطار، سنجده لا يتناسب وحجم التحدي والمسئولية الملقاة عليه في هذا الجانب، وكيف أن هذا الأمر لم ينعكس في ما تقدمه وسائل الاعلام من ملامح المجتمع المرتبطة بالغناء، الرقص، اللهجات واللغات والعادات المقبولة وغير المقبولة وغيرها من ملامح المجتمعات الثقافية. لكن الأهم من ذلك التركيز علي ثقافة فهم وتقبل الآخر، وبالتالي فان الرادارات المختلفة (الإجتماعية، الثقافية، الاقتصادية والسياسية علي حد سواء) التي تجمع كل مكونات المجتمع في مكان واحد لم تستطع حتى الأن أن تقوم بهذا الدور علي ما يجب أن يكون. لماذا لا نستطيع أن نرى هولاء الملايين من الناس في شاشة واحدة. أنا محتار بالفعل ... هل هذا شعور خاص بي أم أنك تشترك معي عزيزي القارئ في هذا الامر؟ والمهم كذلك في هذا الجانب أنه حتى الأن لم نستطع أن نتعاون بشكل كلي لقراءة أين هم الذين لا نستطيع أن نراهم. وهذا ما جعل بعض الكلمات تستعمل بصورة كبيرة في الفترة الاخيرة وهي كلمتي التهميش او المهمشين. في حقيقة الامر هذه الكلمات ليست مجرد شعارات أو كلمات فضفاضة. إنها حقيقة لكن علينا أن نعي جميعاً أن المهمشين كثر ولعدة اسباب تجعل منهم مهمشين، وليس فقط لأسباب سياسية بل منها ما هو إجتماعي وكذلك هناك من يفضلون نمط حياة معين يزيد من تهميشهم. لكن ليست المشكلة أن يكون هناك مهمشين، فسنجد أنه في أكثر دول العالم تطوراً – مثل الولايات المتحدة والكثير من الدول الأوروبية - لابد ان يكون هناك مهمشين، لكن المشكلة الحقيقية أن لا نعرف أين هم هولاء المهمشين أو كيف نجدهم، وإن وجدوا، كيف نعرف المهمشين من الاكثر تهميشاً؟ وهنا ستظهر الي السطح حقيقة تمزقنا في هذا البلد فالكل متعصب لقبيلته او منطقته دون إحساس بالاخرين، لانه وبكل بساطه لا يراهم وإن رأهم فإنهم مجرد أرقام في تقرير ما حول عدد السكان الذين لم يتلقوا تعليماً او تقرير حول عدد السكان الذين لا يتحصلون علي خدمات طبية أو غيرها من التقارير. وهذا أيضاً يطرح قضية أساسية ظلت في قلب كل الصراعات التي شهدها السودان منذ الاستقلال وهي عدم وجود تنمية متوازنة في السودان، تنمية تراعي إحتياجات السكان بصورة كلية، القدرات المتاحة والموارد التي يمكن استغلالها وغيرها من العوامل. وحتى عندما تحدث هذه التنمية بهذا المفهوم، تظهر الجهوية مرة أخرى إلي السطح لتعيد ترتيب أوراق أولويات هذه التنمية، وتجد أن اللغة في الحوار ستكون "ليه ناس الحتة الفلانية عملوا ليهم المشروع الفلاني ولا الشارع الفلاني ونحنا ما عملو لينا، ولا عشان هم أهل فلان"، وغالباً ما يكون فلان هذا من أحد رموز السلطة أو الإقتصاد وهو ما قد يكون حقيقةً للأسف في بعض الأحيان. هذا المشهد يحدث دون مراعاة لمن هو الأحوج؟

لماذا وأين هي الأولويات؟، وكيف نرتقي ونتطور معاً وبصورة متوازنة دون أن "نسيب زول أو منطقة ورانا".

أتعجب أن يكون هذا هو الحال بالرغم من أن قيمة الترابط ظلت إحدى الشعارات الكبيرة التي نمني أنفسنا أنها موجودة، ونقول بها حيث نشير إلي أنها ما يميز هذا الشعب. أكاد أتفق أن قيمة الترابط هذه توجد داخل الحلة أو القرية الواحدة ومن يقطنها من أناس في الغالب يربطهم الدم أو النسب الواحد، لكن أبعد من ذلك ستنهدم هذه القيمة ولا نجدها حتى بين أبناء الإقليم الواحد. ما الذي يجعلها تذوب ولا نراها تنعكس علي المجتمع السوداني ككل، أم أنها بالفعل شعار فقط لا يترجم علي المستوى الأكبر. بالفعل هناك شرخ كبير جداً حول كيف ينظر السوداني إلي السوداني الأخر وكيف يتعامل معه، وهذا ما تناولنا أمثلة عليه بشكل واضح سابقاً.

دور التعليم وسلاح التعليم وغرس كل هذه القيم في قلوب ونفوس الصغار هو إستراتيجية لابد من التفكير فيها بجدية، وإدخال محاور بناء هوية إنسان السودان في مناهجنا التعليمية. فلنقس هذا الامر مع ما تحتويه المناهج الدراسية الحالية ولنوازن أيها أهم. ما الذي أريده من الشاب السوداني عقب تخرجه من مرحلة الاساس أو الثانوية.

للثقافة أيضاً دور كبير

من أجمل ما كنت أرى دائماً، ويعزز قوة إيماني بالتنوع وجماله، هو المقامات والفعاليات الإحتفالية التي تطرح التنوع وتبديه في أبهى حلة وتجعله جذاباً حتى لأكثر القلوب نفوراً. مهرجانات الثقافة والفرق الشعبية والغناء بشكل عام هي أحد أهم الأدوات التي لعبت وستظل تلعب دوراً كبيراً في تشكيل نظرتنا علي الأخر. أذكر مرة أنني كنت في قاعة الصداقة بالخرطوم في أحدى ليالي السودان 2012 التي أقيمت حول شرق السودان. أذكر تعليقاً من أحد الذين كانوا يجلسون قربي وهو يقول "والله أول مرة أعرف أنو الهدندوة ديل بيفهموا". جاء تعليقه هذا كنتاج طبيعي لكم الإبداع الذي كان يتدفق من الفرقة المؤدية في تلك الليلة وهم يحاولون أن يؤدوا رقصات تعبر عن ثقافتهم بشكل عام وخاصة تلك المتعلقة بالعلاقة بين المرأة والرجل في إدارة شئون الأسرة الصغيرة. ما خرجت به من ذلك الموقف أن نصف ساعة من الزمان في حضرة ثقافية مخطط لها بشكل جيد يمكن لها أن تكون أداة فاعلة في تغيير المبادئ التي ننظر بها إلي بعضنا البعض. وقس علي ذلك الكثير مما يحدث من حولنا حول كيف يمكن للمسرح والثقافة المدرسية (الدورات المدرسية) يمكن أن تخلق ولو مستوى مبسط من التغيير المطلوب في حال أنه تم إدارة هذا الأمر وفق رؤية تسعى في الأساس لإيجاد أدوات تساهم في إدارة التنوع. ولعلي من هذا المقام أود أن أحيي بقوة الشخصية التي كانت وراء مثل هذا الفكر، وهو د. السمؤال خلف الله وزير الثقافة والإعلام الأسبق، ليس فقط لتنظيمه لهذه الفعاليات الجميلة، ولكن لانه رجلً ينادي بهذا الفكر

الذي يدعو إلي إدارة التنوع وحث المجتمع علي تقبل مختلف مكوناته، وهو يحاول أن يفعل ذلك بمختلف الطرق. لكن أفترض أن السمؤال ومعه قلة هم من يؤمنون بهذا الفكر ويحاولون التغيير. لم تتح لي الفرصة أن التقي بالسمؤال، وليس اللقاء هو المهم، لكن أجد أني في دائرة واحدة معه ومع اخرين ننادي بتغييرات حقيقية تمس السبب الحقيقي وراء الكثير مما يدور في سودان الحاضر. هذه دعوة لنا جميعاً لأن نكون التغيير ... أن ننادي بالتغيير وأن نفعل التغيير. التغيير الذي يعيد تعريف سودانيتنا من الداخل ... من جوة النفوس وليس فقط من الخارج عبر الكلام المنمق والأشعار. فكما كان يقول المفكر الفقي رحمه الله "كن أنت التغيير".

بالطبع هذا وحده لن يحل القضية بين ليلة وضحاها. لكن الحوار وطرح القضية بكل جوانبها القبيح منها والجميل هو البداية. لا أجد فيما نفعله الأن من نكران المشكلة منفذ إلي الحل. فالوقوف عند هذه القضية سيكون له أبعاد كثيرة سياسية وإجتماعية قد تزيد من سعر النار، لكن هذا سيكون لوقت قصير نسبياً "ومافي حلاوة من غير نار". بالتاكيد سيظن البعض ممن يقرأ هذه السطور أن هذه أماني وأحلام... وكلام بحبر.....لكن أقول، وبذات المبدأ الذي ناديت به سابقاً، كما أني أعدكم أن أكون أداة تغيير لهذا الوضع.... "المهم القناعة والرغبة والروح الجماعية"

السودان هو الشعب .... السلطة أم الوطن؟

حين قررت بأني أود أن أتناول بشي من التحليل شئ من حال السودان اليوم، توقفني أمر مهم وأظنه محير في ذات الوقت، فقد إنتبهت إلي أنه دائماً ما يحدث خلط محير بين هذه المكونات الثلاث، وهذا الخلط غالباً ما ينتج عن تعريف يتسم بالسلبية بشكل بشكل عام حول السودان، ودعونا نوضح في عجالة هذا الجانب.

كثيراً ما نستمع في الأخبار السياسية إلي مقولة "حكومة وشعبا" وكان هناك إيحاءً ضمنياً أن الحكومة كيان والشعب هو كيان اخر. السودان كوطن لا يمكن أن ينفصل عن الشعب أو عن السلطة في معناه الأشمل التي تضم الحكومة والمؤسسات الإجتماعية الحاكمة، حيث أن الكل يوثر علي الكل. مخرجات العملية السياسية بكل أجنحتها الإجتماعية، الإقتصادية والثقافية، تؤثر علي الانسان بشكل فردي ويتفاعل كل ذلك لينتج السودان الشعب. والفصل بين السلطة والشعب يصبح شئ صعب التحقيق فيما يتعلق بالعلاقات، وهذا شأن كل الدول. ولو أردت أن تتلمس الشعب أو السلطة كشيئين واضحين ومنفصلين فلن نجدهما ولكن لنفهم ونقيم كيف هو أداء السلطة أو ما هي مواصفات الشعب فلتنظر للشخص العادي في المجتمع. بمعنى أخر إن أردنا أن نرى السودان، هل سنراه في السلطة أم في الشعب بشكل عام؟ بالتأكيد لا. فالسودان يمكن أن نراه في السوداني الإنسان بمفاهيمه، أخلاقه، سلوكه وفي إنسانيته. وهذا الأمر مهم خاصة إذا أقررنا بأننا في حوجة لإعادة بناء السودان حيث أن ذلك بالضرورة

يتطلب منا الفصل بين السودان دولةً وحكومة وبين إنسان السودان. ما نود الوصول إليه من غدٍ أفضل لن يتحقق إلا بوضع إنسان السودان أولاً في أولويات التطوير والتنمية. بلدنا السودان يحتاج لإنسان يتم وضعه في المقام الأول قبل الحكم علي الدولة وفشلها ونجاحها. بلدنا السودان بحوجة إلي إنسان أكثر وعياً وأكثر علماً وأكثر قدرة علي تجاوز عقبات الزمن وأكثر قدرةً علي التعامل مع ما تقتضيها التغيرات التي تحدث في عالم اليوم والتي تتطلب منا قدرة أكبر من النظر بطريقة شاملة للأمور وتحليلها بصورة علمية ومنهجية. تطوير الإنسان أولوية ملحة في السودان، وبالرغم من كل التحديات التي تواجهنا جميعاً كشعب وكذلك حكوماتنا، إلا أن النظرة الإيجابية لتغيير حال السودان حكومة ودولة إلي وضع أفضل في المستقبل يجب أن تبدأ من الإنسان. الكثير من شعوب العالم إجتازت هذه النقطة حيث لم تعد تعامل الشعوب علي أساس من يسوسها ويحكم عليها بهذا المنظور، بل تقيم الشعوب بحضارتها، علمها وإمكانياتها. هذه النقلة المطلوبة في نظرتنا كسودانيين لأنفسنا تقتضي منا الإهتمام بإحداث هذا التغيير في بناء هوية وذات سودانية يكون للشعب فيها الدور الأهم. وستكون هذه الأولوية هي محور هام لأي حكومة تود أن تضع السودان في مكان مختلف عما هو عليه الحال اليوم.

لقد قمنا بذكر هذا الجانب في هذا المقام لعلنا نعود بالقضية إلي أساسها ... الا وهو الإنسان. السودان وطن به من التحديات ما به، والطريق أمام تطويره طويل والتنمية مشروع يطول تنفيذه ويواجه من الصعوبات ما يواجه، لكن كل ذلك يسهل إذا وضعنا الإنسان في عمق التنمية، إنسان السودان اليوم في أحوج ما يكون لتطبيق هذا المفهوم. الشعب السوداني اليوم للأسف عبارة عن قطعة رثة من بقايا أمة وأسمال شعب، نحتاج إلي عملية إعادة تدوير لمكنونات هذا الشعب وما تبقى فيه لعلنا نصل في يوم من الأيام إلي مرامنا لنكون أمة كما يقول نشيدنا الوطني "فليعش سوداننا علماً بين الأمم". الحلم لابد له من مقومات لتحقيقه، السودان الوطن يحتاج لشعب قوي، والشعب القوي يحتاج إلي إنسان قادر علي الوصول إلي هذا الهدف الكبير.

وشهادتنا لله أننا ما نقول هذا القول إلا لحبنا لهذا الوطن وفخرنا بالإنتماء إليه

إنتهى المقال

د. أمجد محمد إدريس